((الكائنات التجريدية في الخلاف))

حوار هامس... لكنه فصيح

تحكمه نوابا البناء والإضافة

بين عنصر واثق بنفسه يريد تحريك الحياة

يقف شامخاً في زاوية الإعجاب

وبين الحياة في إطارها العام وأطرها الجزئية

فهي تكشف له هويتها ومحتواها وذخيرتها

وتتقدم الصفحات ذوات الوعد

بألوانها البشائرية

تُغريه بإقدام .

الطبعة الأولى

١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م

حقوق الطبع محفوظة لدى العالم

دار الأمة للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية

الرياض : ٠٠٩٦٦٥٥٤٤٨١٩٠٥ - فاكس :٠٠٩٦٦١٢٤٨١٩٠٥

جدة : ٠٠٩٦٦٥٠٠١٥٠٤٠٤ - فاكس : ٠٠٩٦٦٢٦٨١٠٥٧٨

emal:alomh@gawab.con

غير مسموح بإعادة نشر أو إنتاج هذا الكتاب أو أي جزء منه ، أو تخزينه على أجهزة استرجاع أو استرداد إلكترونية أو ميكانيكية ، أو نقل بأي وسيلة أخرى ، أو تصويره ، أو تسجيله على أي نحو ، بدون أخذ موافقة كتابية من دار النشر .

((الغلاف من فن الراشد))

١ همس النبضات

□□ هذه السلسلة من رسائل "استراتيجيات الحركة الحيوية": كان مُقدّرا لها أن تكون كتاباً واحداً ضخماً يقترب عدد صفحاته من الألفي صفحة، تظهر من خلاله الوحدة الموضوعية جليّة، ويستطرد القارئ مع معانيه تباعاً، فيكون الفهم لها أوفر، ولكني رأيت هبوط مستوى صبر القراء عما كانوا عليه من قبل ونوع كسل يستشري يَصد عن مطالعة المدونات الضخمة، ويولّد زهداً فيها، وهي ظاهرة سلبية اقترنت بولعٍ شديد تجاه الانترنت والفضائيات الكثيرة الملهية، وأجبرتني على مجاراة الأحوال والواقع، وتقسيم كتلة البحث إلى أجزاء صغيرة، وعرضها من خلال رسائل متناسقة ذات منهجية واحدة، يسهل على شباب الصحوة الإسلامية المعاصرة إدراك مراميها، وتكون الإحالة إلى مراجعها في نهاية كل رسالة، حتى إذا أتممت عرض جميع الكتلة البحثية: رجعتُ واستأنفت جمعها معاً في موسوعة مترابطة، مع إعمال يد التغيير فيها، والتقديم والتأخير، والمناقلة، والحذف والإضافة، لتكون متناً واحداً يشرح نظرية "حركة الحياة" في سياق منسجم يراعي دقائق المنهجية العلمية.

□ للحياة كلها منظومة جينية متكاملة

□ وحين اطلعت على المنظومة الجينية للإنسان، ولكل حيوان، وقصة الخلق العجيب، وتوالي الصفات التفصيلية محمولة على جينات خاصة عددها في حدود الثلاثين ألفاً، وخبر الهوية الخاصة بكل إنسان من خلال حمل حامض DNA لها: أدركت وجه التشابه بين المخلوقات، أو الإنسان الذي هو أرقاها، وبين الحياة كلها، والعوامل التي تحركها وتؤثر فيها وتجعلها تتجه إلى وجهاتها كل حقبة أو بضعة أجيال.

● ولتصوير وجه المقاربة والتشابه يلزمنا أن نتذكر أن اكتشاف المنظومة الجينية للإنسان كان عملاً ضخماً جداً، يوازي في حجمه وأهميته اكتشاف الدقائق الذرية وتطويعها للاستخدام الحيوي، ويوازي عملية النزول على سطح القمر وما تطلبته من عمليات جزئية كثيرة وحسابات علمية دقيقة تبدأ من اختراع الخوارزمي للصفر الرياضي قبل ألف سنة مروراً بكل قوانين نيوتن وماكس بلانك وآينشتاين وحقائق فيزياء الكم، فالمنظومة الجينية إنما تيَسر اكتشافها عبر منهجية أخرى ضخمة تطلبت جهود آلاف الباحثين، وأكفأ الكومبيوترات، ومليارات الدولارات، وتعاوناً دولياً، وخلال ذلك تم التعامل مع مليارات المعلومات والرموز التحليلية وتنقيتها ورؤية وجوه التشابه والاختلاف بينها وطريقة تكرار بعض الصفات، وبعد جهد إحصائي واسع اتضحت الخارطة الجينية، ووضعت في الانترنت، ليفهم منها أهل الاختصاص كيفية التعامل مع الصفات والأمراض، وكيفية التلاعب بها، وتوليد منظومات جزئية مستنبطة من المنظومة العامة، من أجل التحكم والسيطرة على الأجيال الجديدة.

وبعيداً عن الوجوه الأخلاقية لهذه العمليات، واحتمالات الإساءة، التي لا تعني مبحثنا: نستطيع أن نزعم أن "منهجية اكتشاف قوانين الحركة الحيوية" هي صورة تكاد أن تكون طبق الأصل من منهجية اكتشاف المنظومة الجينية هذه.

● فالحياة العامة فيها أيضاً ما يصل ربما إلى ثلاثين ألف نوع من أنواع المؤثرات والحقائق والقوانين الجزئية والظواهر والمدلولات والصفات والعوامل والأرقام والأسس والمفاصل والمنطلقات ومساقات التوالي والتتابع، ونسقات الترتيب، أو مفارق التضاد والتنافر، وهذه المفردات موزعة على كل أنواع العلوم وأشكال التصرف البشري والعلاقات الكونية الخَلقية، فبعضها مستنبط من حقائق الجدول الذري للعناصر ورياضيات الدقائق الذرية والتكوين الجزيئي العُضوي، ومن طبيعة الأداء العضوي لجسم الإنسان

والمخلوقات كلها، نزولاً إلى الجرثوم والفايروس والخلية، وعمل الأعصاب والدماغ أخفاها، لكنه أوضحها دلالة، ثم مروراً بكل حياة المخلوقات والأكوان، وبقية مفاد علوم الفيزياء والكيمياء والرياضيات والطب، ثم تتوسع دائرة المؤثرات من خلال مراقبة نوع التصرف الإنساني وطبائع وروده وتأثيره، في الحرب والسلم، والعلاقات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، وأرحب ما فيه: تسجيل ألوف الأحوال الجزئية لتصرفات النفس الإنسانية أثناء ترددها بين الخير والشر، ودرجاتها في ذلك، وظواهر سلوكها، وأخلاقها، وخوفها وجبنها، وقلقها ويقينها، وانفتاحها وانغلاقها، وطموحها ويأسها، ثم ما تُترجَم به أحوالها من رمزيات، ومعان، وحُب، وعشق، واستعلاء، وعِزة، ولأن الإنسان سَجّل تاريخه، فإنه صار من الممكن مراقبة هذه الأحوال كلها أثناء تكررها في الأجيال عبر ملايين القصص الواقعية. ثم لأن الإنسان سجّل آدابه وخلجات قلبه ومشاعره: صار من المتاح إحصاء تفصيلات كثيرة أخرى من مفردات الصورة الحيوية عبر هذه الآداب والكتب والأشعار. ولأن الفكر والافتراض الفلسفي كان له دور مماثل وأسلوب شبيه: تراكمت معرفتنا بتفاصيل أخرى، ولأن ظاهرة الخيال عامرة في الحياة : استطاع الإنسان تحوير مفاهيمه وانطباعاته وتأثراته إلى شكل مرئي مرسوم ومنحوت، فصار الفن ميداناً رحباً لاكتشاف تفاصيل أخرى، ومن خلال تجميع هذه المؤثرات الحيوية المفردة من ميادين العلم والآفاق المعرفية وتراكماتها التاريخية: أصبح الباحث يتوقع بلوغها الثلاثين ألف مُفرَدة، ولأنها متكررة في التاريخ والمجتمعات المنوعة : صارت الكتلة المعلوماتية مليارية أيضاً، ويلزمها نخلٌ وفرز وتمييز واصطفاء وإلغاء المكرر، لتكون النخبة الدلالية مجرد عشرات ألوف، مثل الثلاثين ألفاً التي نرجحها قياساً على العوامل الإنسانية الجينية، وكأن الفراسة التي نملكها في معاني القَدر الرباني تحملنا على اعتقاد رجحان ذلك، أو أن تكون أكثر أو أقل.

● ومنهجيتي التي فرضتها لنفسي: أن أمسح كل هذه العلوم والآداب والفنون والأفكار والتاريخ والتصرفات النفسية وملحقات هذه الآفاق المعرفية، لأكتشف مقداراً كبيراً من هذه المفردات التأثيرية في الحياة، ومحاولة ترتيبها في أنساق ومعادلات، تقترب بي وبمن يطالع نتائج رصدي من معرفة قوانين الحركة الحيوية، ومن ثم كيفية السيطرة عليها وتوجيهها لإحداث تأثير يوافق مراد الله تعالى وعقيدة التوحيد وغاية عمران الأرض.

● وواضح أن مثل هذا الجهد لا يستطيعه فرد واحد، لا أنا ولا غيري، بسبب الأرقام المليارية للظواهر والمفردات التي قلناها، ولأن عملية الفرز والاستخلاص معنوية لا يقدمها الكومبيوتر وإنما يجب أن تمر بالمنخل العقلي الإنساني، وهذا عمل مرهق لا تكفيه أعمار الباحثين المنفردين، ولكن نُسدد ونقارب، ونجعل المهمة جماعية كما كانت قصة كشف المنظومة الجينية جماعية، فأنا من خلال رسائلي المتتالية في محاولة اكتشاف ظواهر الحركة الحيوية سأصل إلى اكتشاف جزء منها، واقتراح سياق انسيابي لحركتها من خلال معادلات وأنساق، وأكون قد قدحتُ الزناد، وأتيت بالأمثال، وضبطت وجهة البحث، ثم يتصدى عشرات الباحثين من مثقفي دعاة الإسلام ليُضيف كلٌ منهم كتلة أخرى من المفردات والتفاصيل والتقاسيم، حتى تستوي الكتلة الحاوية على عشرات ألوف المعلومات أقرب إلى التمام، فيأتي مبدع في الزمن اللاحق ليجمعها ويؤلف بينها ويوضحها في منظومة واحدة.

ذلك هو العمل في بناء شبكةٍ أو هيكلِ المحركات الحيوية، وتلك هي منهجيتها.

☐ واجب المبدع في تركيب المفردات

● والآن، بمثل هذا التصور : يمكنك جمع هذه الألوف من القواعد الصغيرة في تحريك الحياة، تستخرجها من الفصول المتكاملة لأطراف المعادلة الحيوية، وستجدها متفاوتة في أهميتها، متنوعة في آثارها.

فتصور نفسك جنرالاً في غرفة عمليات يحيط به عشرة من الضباط الأركان، وأمامك منضدة طويلة واسعة، وبيدك العصا تؤشر بها، فتأمر بترتيب القواعد وتقول: ضع هذه هنا، وتلك هناك، وما تزال تُبدِل وتقدم وتؤخر، وتُفرد وتزاوج، وتصنع المنظومات، وتستدرك عليها بشروط، وتضع قيماً، حتى تستبين المسالك والمسارات وسلاسل الأداء، وتتضح خارطة لتحريك الحياة في قطرك تكون هي الخلفية الإستراتيجية لكل التعبويات المحتملة، وتبقى مرنة تستجيب للمفاجأة وضغوط الضرورة.

● فهذا النشر، والتوزيع، والتحكم، والترتيب، ومنح القِيَم النسبية، وتركيب الأجزاء، وبيان التوالي: هو السبيل الأمثل للاستفادة من حشد الموازين والقواعد المطلقة السائبة، وهي صنعة تعود بالتالي إلى الذكاء والخبرة الفردية والقابلية الإبداعية، وتلك هي طبيعة الحياة، فإنها لا يمكنها مهما أفصحتْ عن قوانين حركتها أن تلغي الدور الذاتي للرائد الذي ينوي احتلالها، ولا يمكن لدوره الخاص أن يُلغي ضرورة التشاور مع الأركان، فإنما الرأي قَدحة، يبعث شررها احتكاك العقول والحوار، فتستفزُ التحدياتُ الكوامنَ والأعماق، فتنطلق سيول الفوتونات والإلكترونات، ليجري التيار والشعاع، وتتجدد الحياة.

فافهم، وخُذ عدستك المكبرة، وفتش عن الموازين والنَسَقات والتجريب، في عرصات الإيمان والقَدَر، وهضاب الفن والجمال، وآفاق العلم، ليومض لك التمكين.

شئت أم أبيتَ : أنت المُكلَف .

فكن المخيَر المطواع ..... قبل أن يقودك القَدَر الى الجنة بالسلاسل ..!!

"سلاسل" المحن والفتن والمعاناة، ذوات التعليم والتلقين والدروس ... حتى تتوب من التبسيط والارتجال .

❑ الأنساق تُرسم السباق

❑ وطريقة أُخرى: أن المعاني الجزئية إذا اكتملت لك، وأنتَ تريد تحريك الحياة لصالحك: تجعل نفسَك مثل المفتي، حين اقترحتُ عليه في كتابي "أصول الإفتاء والاجتهاد" أن يكتب كل قاعدة فقهية في بطاقة، فإذا أراد حل معضلة: فرش أوراقها بين يديه، وظلّ يختار ويُناقل ويقدم ويؤخر، تذكيراً لنفسه، وترتيباً لمنطق الإفتاء بها حتى يستقر على اختيارٍ وسياقٍ يُدلي به .فكذلك الذي يبغي "تحريك الحياة": يدوّن عناوين أفكار الصور الجزئية والنبضات الحركية والأحوال النفسيةَ والأبعاد الجمالية ومنظومات المنطق والفلسفة والحرب والسلام وآثار المال وزوايا الهندسة ونغمات اللغة وأشواق الحرية ونسمات الحُب وهزّات الإبداع، وينثرها كلها أمامه، ثم يشرع يتأمل ويقايس وينتقي، ويقدم ويؤخر، كأنه لاعب قمار عنده خمسات وستات، ومَلِكٌ وهازل، وللمؤمن المثل الأعلى، ويبقى يكرر ويبني الأنساق حتى يستقيم له سياق المعادلة التي تخدم نهضته وعزمته ويرسم خارطة تأثيره.

ولمتحمسٍ أن يستطرد ويذهب إلى أبعد، فيأمل أن تلي هذه الرؤى في كيفية انسياب الحركة الحيوية إلى تسهيل صياغة "مشروع حضاري إسلامي شامل" و"خطة إستراتيجية بعيدة المدى"، وليس مجرد خطة قطرية أو خطة مرحلية أو إستراتيجية قصيرة المدى، لأن المحركات المرصودة هي نفسها التي تتطلبها الرؤية البعيدة، والمرجع التحليلي واحد، ومنطق التعليل متماثل، بل كأن السكينة الإيمانية تمنح الداعية تفوقاً وترجيحاً على غيره من المتأملين في الميدان التخطيطي.

❑ النمز و"السوبرية" والتفوق على المستوى العادي

❑ وأول ما نوصي به المؤمن في هذا المجال: أن يسعى إلى تجميل وتكميل علومه الشرعية والأصداء الإيمانية في قلبه: بالثقافة المعرفية العامة، والإطلاع العلمي، فمن الملاحظات المهمة في رصد المؤثرات الحيوية: أن جوانب الاعتدال والوسطية، والذوقيات، وإرهاف الحِس، ورِقة الشعور، وهدوء النفس: كلها تتأثر إيجابياً وتتصاعد طردياً مع إتقان الشخص للعلوم والرياضيات، ومع تطور نظرته الفنية، وكثافة سماعه للكلام الأدبي والشعر واللغة البليغة، وهذا التأثير هو الذي حمل فيثاغورس منذ القديم على المبالغة وجعلته يزعم (إن تطهير النفس ممكن من طريق معرفة الحساب والهندسة والموسيقى)[1].

● وذلك وهم منه، فإن النفس لا يطهرها غير إيمان بالله وطاعة له، ومضاء عزم على ملازمة الأخلاق، ولكنه أحَس بشيء من آثار الرياضيات في النفس فتوسع، وهذا مقدار تكميلي لا أصلي، وزينة وتحسين لا أساس، وكذالك الفن التشكيلي والآداب وكل المعارف والعلوم، وإذا أرجعنا ملاحظته إلى مقدارها الصحيح فإنها تكون ملاحظة تربوية، وشاهداً لإبداع، وآلية يوصَى بها لإتقان صنعة التفوق والقيادة، وطريقاً مؤكداً لحيازة مستوى الرجحان والامتياز الذي هو عامل الحسم عند التنافس الحيوي في كل أشكاله، وذلك قريب من معنى "السوبر" Super في الثقافة الغربية، وأغرب ما هنالك أن فيثاغورس مات في حدود سنة خمسمائة قبل الميلاد، وعرف ذلك وإن بالغ، ولكن أناساً بعد ألفي سنة من الميلاد يحتاجون إلى واعظ يذكرهم به.

● وكان تاريخ روما تاريخ جبروت، وهو مأسور إلى أعمال قياصرة يستبدون، حتى أحرق نيرون بلدته، فذهب خبرها الفكري مع الريح، ولكن بقيت حية حتى الآن لمعات فكر "سُقراط" التي انطلقت في أثينا وأهداها إلى جملة الحياة، ولئن كان أرسطو تلميذه قد جنح إلى إلحاد، وتنهانا متاهتُه أن نعتد بها، أو أن

نُري من أنفسنا فخراً بها، فإن أستاذه سقراط كان على عقيدة التوحيد، أو مقارباً لها في قول مَن يحتاط، مما يجعل الفخر بلمعات فكره حلالاً يسوغ لنا في آخر الزمان الانتساب إليه والى بطولته في تجرع السمّ تثبيتاً لمعنى الحرية واستعلاء الفكر كمثل فخرنا بأي حنيفي من العرب كان يتحدى الأوثان ويمد سَنَد التوحيد بالاتصال والحياة، والجميع في خبر تشكيل معنى حركة الحياة مُساهم ومشارك.

□ وللفن دور تكميلي مؤكد ...وللجمال..!

□ ووظيفة "نظرية حركة الحياة" : أن تُوقِفَ المسلم العصري على جذور مكونات الصور الجزئية للحياة، وعلى أصول النبضات المتعاضدة التي تتكون من اجتماعها الحركات الحيوية، فمَن يملك هذه وهذه : يؤذن له أن يكتشف المعادلات التي يتم التغيير بموجبها، بحيث يكون الغوص إلى العلل ومصادر الحرارة، لا الاكتفاء برؤية الغليان الظاهر فقط .

ويسهل على المسلم الواعي تصور هذه الجذور والأصول حين تكون شرعية ومعرفية وفكرية وسياسية، بل وحتى أن تكون نفسية وعلمية، ولكنه يزهد بالأصول الفنية، ويستشكل أمرها، ولذلك يلزمه أن يستوعب تكامل التأثير في الحركة الحيوية عبر الفن والذوقيات والتشكيل والهندسيات.

● ومحور هذه القناعة أننا نعيش ضمن الحياة العامة، لا خوارج عنها، وأن هذه الحياة إنما نشارك في صناعة جزء منها، لا كلها، وإنما يصنع أكثرها غيرُنا، وبعضها تراكم قديم لأجيال مضت وأمم سَلفت، وهؤلاء تناوشوا الفن والجماليات وجعلوهما مادة في بناء الحياة، ومن غير الممكن أن نخالف ونكون صِلابا في موطن رفق، ويُبوسا في أرض ندية، ونشازاً في سياق انسجام، وفوضى في حافة كتلة انتظام، بل نتجمل إذ نحن نتأمل، وننسق إذ ننطلق، ونستخدم درجات الألوان وأصداء اللمَعان، فإنها فكر مكمل، وعمل عقلي منطقي، وسبب سواء نفسي معنوي، ومن خلال انسياب حركة النقطة في الفراغ نستطيع تكوين

المفهوم الواعظ، ورواية التجربة، والجدل بالحسنى، والحوار المتكافئ مع إنسان لا يفهم لغتي وحروفي، فإن "التجريد" جسر بين القلوب، يعبر البحار، ليؤسس بشرى، أو يصَدع بنذار.

● ومن طرائق اكتشاف "المحرك" من محركات الحياة، والذي هو "جزء من الخطة": أن نجمع بين مدلولات صغيرة ونوفق بينها، بعضها شرعي، وبعضها إيماني قَدَري، وبعضها نفسي، ونخلطها بشيء من المنطق والرؤية الفلسفية لتأكيدها، فتتولد "طريقة" و"معادلة" أو"جزء خطة". لكن هذه القاعدة المتولدة يمكن أن تتحسن كثيراً بروافد من نوافل التحريك، مثل مقياس جمالي تزيده إليها، وإخراج إبداعي، وصنعة لغوية بلاغية، وتضيف إلى الجميع لمسة من عواطف الحُبّ: فتتجود "المعادلة" جداً، وتصير أنفذ وأسرع تأثيرا، وذلك هو سر وحكمة احتواء مدونة حركة الحياة لفصول الفن والجمال .

□ أثر الصنعة القُبادية في تسيير الموجود

□ والمساير لي في تأمل حركة الحياة عبر مسردي الذي سأدلي فيه بخبرها، والذي ينصُت لي بإتقان: تجبهه خاطرة تميل به إلى أن هذا الاستعراض للصور والنبضات الحركية مغرق في "التبسيط" وأن حزمة الحياة بالغة التعقيد ويلزم لفهمها أو للتأثير فيها استحضار واستعمال مختبرات كل العلوم قاطبة، مع حشود من الأموال والذكاء وكميات كبرى من الفكر والأدب والفنون، وبخاصة إذا راقبنا انتفاضاتها الكبرى، مثل الحروب العالمية، وخطط العولمة، واستعمالات الطاقة، وتداول المال.

● وذلك صحيح، وما يكون لأحد أن يخرق تراكمات التاريخ الطويل وثقلها في صياغة الحاضر والمستقبل، ولكن ما نقترفه من شهادة على منظر الحركة الحيوية نريد به تلقين من يريد التأثير فيها المسارب والقنوات التي يُحتمل أن يجري فيها سعيه، والأسس التي أحدثها غيره سابقاً وتصلح أن يقيم عليها بناءه،

ثم وصف البيئة الحاضنة، ومقادير العلاقات المتاحة له في ذلك وموازينها ومعايير تصنيفها، والأنماط الممكنة من السيطرة الفوقية على خصائص النفس المودعة لدى من يتعامل معهم، من جندي مساعد، ومنافس مزاحم، وعدو ناحت، وأن ننبهه إلى القابلية القيادية في استثمار طاقات جاهزة عبر فذلكات السيطرة، وطرائق الإبداع، وروح الطموح والتحرش والإصرار على السبق، ومعنى كل هذا أن الذي يريد تحريك الحياة ليس يقع عليه عبء بناء القوى العسكرية والاقتصادية والعلمية، ولا آلاتها وتراكماتها، بل هي موجودة، وإنما له فرصة أن يمسك بتلابيبها ويعلوها عبر عملية قيادية تبدأ بفكر، وتمر بتخطيط، إذا عرف النفس، وقدح العقل.

والأمر أشبه أن يسير على سنن الوسطية، فان "محرك الحياة" تلزمه حيازة علوم، وأموال، وأدوات مادية، ولكن بمقدار، والباقي يرثه عن غريمه، أو يشتريه، أو يحتال لحيازته، أو يهديه الحليف له.

● والمحاولة كلها مبنية على التفكر ودقة الملاحظة والتفرس فيما حولنا من صور الحياة وحركات النفوس ومغامرات العقول، على طريقة الشاعر الذي يقول:

فانظر وفكّر فيما تمرّ به ... إنّ الاريبَ المفكّرُ الفطِنُ[٢]

فهي رصدٌ ذكي للساحة الحاضرة، وللتاريخ، والأحداث، والعلوم، واقتحام لدواخل الذوات والأرواح ومكامن القناعات، وتفنن في السعي لحيازة ما يملكه الغير وينقصنا.

وانظر مصداقاً لذلك: الانتفاضة الفلسطينية، وآلتها الصغيرة لما حملتها القلوب الكبيرة، كيف فرضت نفسها. وانظر الجهاد العراقي وسلاحه المتواضع مقابل سلاح الجبروت، ثم التفت إلى مصالح الصين كيف تحدوها إلى مخالفة المسلم؟؟

❑ التلازم بين قِيمة الروح وقِيمة المادة

❑ وهذه الأحاديث تؤكد أهمية الجانب غير المادي في تحريك الحياة، فالفكر، وتطلعات الروح، وتصرفات النفس: هي الأمضى الأشد تأثيراً، وتكاد النزعة الفلسفية التأملية إذا اقترنت بالإيمان والتوحيد أن تكون هي التي تقود الحياة، و"المسلم الحضاري المدى" من شأنه أن يذهب هذا المذهب، وأن يزداد معرفة بآفاق "الروح" لتذِل له "المادة".

● وكان كاتب اسمه "موسى عجمي" كانه من لبنان قد سبقني إلى فكرة ضرورة دراسة "حركة الحياة"، فألف كتابا موجزاً صرخ فيه صرخة تبشّر بالمعنى، دون أن يدخل في تفصيل، فكان الرائد، وأشار إلى أصول أحاسيسه، من منطلق علماني، دون أن يورد الشواهد والقصص والمناظر الحيوية الجزئية، فالتقيت مع أفكاره وإبداعه في النظرة الشمولية، وافترقت عنه فيما وراء ذلك، وتجاوزت بعض غموض اعتراه.

ومما لاحظه موسى عجمي أن (الروح هي الحياة بالتسمية الثانية، وهي النفس التي تلتزم الفاعلية والقوة والتحريك .) وأنها (تلك الطاقة المتحركة من تلقاء ذاتها، واحدة في الكون، مجزأة في الأشكال والمظاهر التي تختلف وتتنوع باختلاف بذرتها الذرية).

● وهذا كلام جيد في ظاهره، لولا إنه يقترب من شبهة، فإنّ الروح عند المؤمن إنما هي هبة من الله، وهو خالقها وموجدها، وكونها مجزأة في الأشكال أمر صحيح إذا اعتبرناها جنسا، فجنس الروح متماثل في أنه تحريك، لكن أرواح الموجودات تختلف، فليست الحركة القدرية للذرة كمثل الحركة العقلية للإنسان، وإنما في العمل العقلي الإنساني تكريم من الله زائد على حركة الجماد، وقد خلق الله الإنسان في أحسن تقويم .

● ويستطرد موسى عجمي فيستنتج أنه (كأن غاية المادة صيانة الروح فقط والمحافظة عليها، وتسهيل حركتها لمزاولة عملها الخاص) و(أن الروح والمادة قيمتان متلازمتان لا تستطيع الواحدة أن تحيا من دون الأخرى، ولا أن تتخلى عنها ولا أن تكون منفصلة أو منعزلة عن سبيلها .

فالأولى طاقة فاعلة، وحركة عاملة، وقوة دافعة، ومسؤولة عن كل تحويل وتغيير وتطوير وتبديل، وتتمتع بأولوية الوجود، وأسبقية التكوين، وعلو الهمة والأهمية.

والثانية غلاف لا محيد عن وجوده، ومظهر تأكيدي للروح، وطريق مُعدّة لنظام الحركة، وحصيلة تكاثرية وازديادية تتجلى لتجعل الكون صورة حقيقية وواقعية، والحياة عالماً قابلاً للعيش والسكنى)[٣].

● وهذا كلام جميل، وتخريج جيد يمنحنا توازناً في فهم العلاقة، إلا أن العقيدة الإسلامية صريحة في أن الإنسان يُخلق أولاً مادة، ثم تنفخ فيه الروح في الشهر الرابع، وبذلك يكون من الخطأ القول بأنها (تتمتع بأولوية الوجود)، إلا أن يكون المعنى مجازياً، وأنها إشارة إلى الطاقة التي في الذرة والجزيئة، وهذه الطاقة لا تسمى روحاً إلا على طريقةٍ فلسفيةٍ فقط، والعقيدة تأبى ذلك، وهذا مثال لما أسلفت من أن موسى عجمي تحيطه سلبية الغموض، وكأنه يعتمد الثقافة ولم يشتغل بفقه الشرع ولا هو مأسور لنصوص العقيدة.

❑ مواكبة النبض الحيوي تقود نحو الحرية

❑ ولسنا نحتاج عند تداول هذه المعاني غير نقلة بسيطة لنكون وجهاً لوجه مع دروس مستنبطة من مقارنة اختلاف البيئات في التأثير على نوع التصرف، واكتشاف وجود عامل مشترك بين المخلوقات يحدوها إلى تصرفات متماثلة رغم اختلاف رُتبها، وهذه الملاحظات هي جانب من استثمار منهجية رصد الصور الحيوية واستلال الموعظة والدروس التجريبية منها.

● فهذا "السَمَك" في البحر مثلاً: صارت له خصوصية يخالف بها حيوان البر، فوقف "أبو نخيلة" في القديم متعجباً، يرقبه، ويعيب عليه رضاه بالدون، واستئساره لقَدَره السيئ، وقلّة تفتيشه عن مهرب من المخاطر، وضعف أشواقه إلى الحرية، فطفق يصفه...

تَغْمَرُهُ النُشرة والنسيمُ
ولا يزال مُغرَقاً يعومُ
في البحر، والبحرُ له تخميمُ
وأُمه الواحدة الرؤومُ
تَلهَمُه جهلاً، ولا يرومُ

والنُشرة: الريح الطيبة، وهي مذكورة في قوله تعالى: "وهو الذي يُرسل الرياح نُشْراً بين يدي رحمته".

يقول (النشرة والنسيم الذي يُحيي الحيوان إذا طال عليه الخموم والعفن والرطوبات: تغم السمك وتكربه، وأمه التي ولدته: تأكله، لأن السمك يأكل بعضه بعضاً، وهو في ذلك لا يَرِيمُ موضعه).[٤]

أي لا يسعى لتغيير موضعه.

والمستضعفون الذين لم يفهموا علم "حركة الحياة" ما يزالون في ضيق حصار تراكم الظلم الاجتماعي، وحيتان الإدارة الزرق تأكلهم، وصعاليك الإعلام تخونهم، وقادة العساكر تُلْهَمُهم، وهم مازالوا يرتضون البقاء في العفونة والرطوبة، ونسيم الحرية منهم قريب لو أرادوا فتحه بقوانين حركة الحياة، لكنهم القَعَدة الكسالى.

والمدرب الإبداعي، "ومُعلّم حركة الحياة" هو "أبو نُخيلة" معاصر، يسأل:

أأنتم سَمَك... يسجنكم البحر!!..؟

● ثم لا جواب..!!

لأنها تكون المتاهة أحيانا، وتشمل معظم القوم.

كالتي أدركها الأعشى فقال[٥]:

ألا مَن مُبلِغُ الفتيان انّا في هَواهيّ

وإمساءٍ وإصباحٍ وأمرٍ غَيرِ مَقضيّ

والهواهيّ: الأباطيل.

فمن الذي يُبلّغ رجال مراكز الدراسات الإبداعية والتطويرية أن الجيل المعاصر في "هواهيّ" كأنهم لا زالوا جيل الأعشى، وان أمورهم ليس لها حَلّ، وهي غير مَقضية، لنقص التخطيط، وغياب المنهجية، وضعف الرنو إلى الحُرية، وقلّة فهم منزلة "الروح"، والذهول عن المعادلات الاستراتيجية الموجهة لمسيرة الحركة الحيوية؟؟

وهذا هو الذي جعل نظرية حركة الحياة عزيزة عندي، أحرص أن اعرضها على كل مسلم عصري إبداعي: "أعدِلُها بالكفّ أنْ تميلا، أحذر أن تسقط أو تزولا"[٦]، أبتغي بها إحداثَ نقلةٍ في فهمهم لتداول مراكز التأثير في الحياة.

□ الواجب الصعب....الممكن!!

□ وما هو بأمر سهل.. لكنه ليس يرهبنا..

وبخاصة إذا أخذنا بنظر الاعتبار ملحظ النقلة الكبيرة في حجم المؤثرات الحيوية في العصر الحديث، والتي بلغت أوجها في القرن التاسع عشر، ثم أكبر منها في القرن العشرين، أي أن عامل (السعة) صار متغيراً كبيراً في المعادلة.

● انظر مثلاً: المؤثرات الفكرية والنفسية التي يضخها الأدب في الحياة، ففي القرن التاسع عشر (لمعت في سماء الأدب كوكبة لم يجتمع مثلها قط في قرن واحد من قبل، ومن نجوم هذه الكوكبة: غوته) وشيلي، وبايرون، وتولستوي، وإبسن، وبودلير، وديكنز، واوسكاروايلد، وبلزاك، وفلوبير، وتشيكوف،

وهوغو[٧]، وغيرهم. وهذا في الغرب فقط، وواضح أن حيازة الغرب لعوامل التفوق على الأمم الأخرى، كالقوة العسكرية، والنهضة الصناعية والعلمية، والمنهجية الإدارية: جعلت هذا الأدب يؤثر في العالم كله، ووجد له سبيل تأثير في أمم أخرى كثيرة، فتبدلت معادلات الحياة، وحدثت تلك التأثيرات مستفيدة من عامل "السبق" الذي سبق الغرب به الأمم إلى العالم وكانت الصناعة والأسلحة، فالاستعمار، فالثراء وتجميع ثروات الأمم، كسلسلة مُطّردة، وبقيت تتنامى حتى صارت العولمة في آخر القرن العشرين كنتيجة للتفوق الغربي بعامة، والأمريكي بخاصة.

● والمسلم الذي يريد "تحريك الحياة" لا أزعم أنه يستطيع القفز مباشرة إلى التحدي المباشر، ولكنه يستطيع بدء المسيرة في درب طويل ينتهي إلى التفوق، مستفيدا من ظاهرة في الحياة مفادها "التداول" وعدم استمرار قوة القوي، وعندئذ يكون إنتاج فكر إيماني وأدب إسلامي بكثافة هو خطوة في الطريق الصحيح كما كان إنتاج تلك الكوكبة الغربية في القرن التاسع عشر خطوة، وكذا العلم، وحيازة المال، وترسيخ المنهجية.

إن المحركات الحيوية اليوم انتقلت من كونها صغائر إلى كبائر، فهي ضخمة الحجم، شديدة الوطأة، ثقيلة الجثمة.

فانتبه كيف أن السلاح صار ذرياً.

والحظ كيف أن الفجوة العلمية بين الطرفين صارت واسعة.

وافغر فمك لأرقام عظيمة تبيّن فارق حجم المال وحقائق البنوك.

وحروب المياه المستقبلية، ومقايضة الماء بالنفط.

وآخرها "عولمة حرق الإبداع" كما سماها نبيل سليمان[٨].

وفي نصيحة أديب انكليزي له دعاه إلى أن يفكر في: كيف يتملص الأدب من حرب ثقافية تحركها ديانة بوش؟

وأين يسيح الفن إذ تضايقه رؤى اليمين المتطرف؟

وأين هي مساحة اشتغال أبقاها لنا فسادٌ وطغيان يعمل تحت غطاء الديمقراطية وتأييد الغرب؟

وحقيقة أن لا تناسب بين ثقافة الغرب وممارسته والهدم الكامن في تنازل اليونسكو عن حقوقها لمنظمة التجارة العالمية.

وهذه مصائب كبيرة، لكنها عند الفرد النائي النَكِر الخائف الوجِل.

أما العنصر "الدعوي" فانه لا يجزع، بل يأمل ويرجو أن يصد الهجمة ولو بدفع ثمن غال..

● أولاً: بالعمل المماثل، والحرص على الجهاد والنفوذ السياسي، ليصلح، ويدافع، فيظل يدأب ويفتش عن "محركات الحياة" ليستعملها، ويتخذ خطط تجميع وتنظيم وتطوير ومنافسة، وتلزمها أعمال مؤسسية كثيرة، ومؤتمرات، وندوات، ومطبوعات، وإعلام، وما كل ذلك سهل، لكنه ليس بمستحيل، ويمر بلبث وراء قضبان، ودماء، ويقوده أديب ومؤرخ وفقيه وسياسي وفنان.

● وثانياً: بانتظار القدر بعد تقديم تلك الأسباب انتظاراً ايجابياً، فإنه حق، والله يعاقب الدول والظلم الجماعي كمثل معاقبته الأفراد، وليس من شرط ذلك أن تنزل حجارة من السماء عليها، ولكن يضلهم فيتخبون المصلحي السارق، والأحمق والطائش، فيُردي قومه، وتتخبط سياسته، فتكون الثغرات التي يلج منها الضعيف.

والمراقب لقصة احتلال العراق يجد شيئاً من ذلك، ويعثر على مصداق الكلام، وكيف أن جهاد المستضعفين آذى أعتى قوة يقودها مغامر مأسور إلى أوهام معركة "الهرمجدون".

● ويزداد الأمر تعقيداً عندما يختلط ظلم العولمة بظلم عميل محلي يتستر على نزيف يسببه الفساد الإداري ويلجأ إلى ضرائب مرهقة للمواطن، إذ المفسِد يرتع.

وردود الفعل عند المحكوم تجاه الظلم المالي من الحاكم: هي دوماً من أعنف محركات الحياة، وربما تقود لتمرّد وثورة، أو برود العلاقة بين الطرفين، فيكون التأخر المدني.

ويحسبها الطارئ على علم تحليل حركة الحياة ظاهرة حديثة، لكنها قديمة، وفي مثلها قال حُيي بن جابر التغلبي :

أفي كُـل أسـواقِ العـراقِ إتـاوَةٌ

وفي كلّ ما باع امرؤٌ: مَكْسُ دِرْهَمِ؟

ألا يَنتهي عنا ملوكٌ، وتتقي

مَحارمَنا، لا يَبُؤ الدمُ بالدمِ؟

نُعاطي الملوكَ السِلْمَ، ما قصدوا بنا

وليس علينا قَتْلُهُم بمُحَرَّمِ !!

فهو هنا يُصرح بأمر كبير، وهو الدم، أي الثورة، والتي تجلب الدماء، ثم هو هنا يقوم بتذكير الملوك أن الرعية تكون على طرائق سليمة إذا كانت سياسة الملوك : القصد : أي الرفق وعدم التطرف .

فهذا أدب سياسي صريح قديم يكشف عن صفحة من قوانين حركة الحياة.

و(الإتاوة : الخراج . والمكس : ما يأخذه العشّار. يقول :كل من باع شيئاً أُخِذَ منه الخراج أو العشر، وهذا مما آنف منه .).

فالأنفة: حالة نفسية مغروسة في الأعماق تقود إلى العصيان، والعصيان في بعض الأحيان ينجح في تبديل الحاكم، فتتحرك الحياة، وأصل ذلك : ظلم مالي، ولو كانت الضريبة لبناء ومصالح عامة فإنّ أحداً لا ينكرها، ويعطيها المواطن عن طيب نفس ورضا، لكنه الفساد الإدراي واستمتاع الحاشية بأموال المستضعفين تجعل الأمر مكروهاً، فتكون التبدلات، أو الحيصات الفاشلة، لمكانة قوة الحاكم، فيزداد البون الفارق، فتكون الهزة النافضة الخافضة الرافعة.

● وفي القصص الرمزية، أن بُومة خُطِبَت، فاشترطت على خاطبها مائة قرية خربة تنتقي من أطلالها ما تشاء مسكناً لها، فقال لها الخاطب: انتظري سنة، فاني أرى ملكنا مولعاً بكثرة الضرائب وإرهاق الناس.

❑ على سُنَن الأصالة نقرأ الحياة

وكانت سلسلة "إحياء فقه الدعوة" قد كلّفت نفسها مهمة "التأصيل" للعمل الدعوي في أشكاله العديدة، وأنجزته بنجاح بحمد الله، وأصبح الداعية يعرف الأصل الشرعي لأكثر مواقفه وتصرفاته وجوانب خططه، وبحث "حركة الحياة" هذا وفيٌ لهذه النزعة التأصيلية وحريص عليها، ولكن الأمر فيها أوسع من إسنادها للشرع، لأنها أعمال وظواهر حيوية أعم من أن تكون شرعية، وإنما تحركها الفِطَر والأحوال النفسية وطرائق التأثير الأدبية والفكرية والعلمية والإعلامية، وصار تأصيل مفردات الحركة الحيوية يتجلى في الكشف عن عراقتها وقِدمها وانتباه الأولين لها، وأنها ليست من نتاج العصر، وتزداد نشوة المكتشف إذا عرف دندنة العرب القدماء حول بعض المعاني التحريكية، باعتبارهم الأمة التي استقبلت الإسلام واحتوته واحتواها من دون تأثيرات فلسفية كانت الحياة الجاهلية للأمم الأخرى تخضع لها، ومع ذلك فإن كشفنا قد استطرد فرصد ما عند الأمم، لأن "تحريك الحياة" صنعةٌ إنسانية عامة، وكمون سبب فلسفي وراء بعض المحركات لا يعيبها، ومن هنا جاء انفتاحنا في وصف حركة الحياة الإنسانية كلها .

● والكثير من المعاني الكاشفة عن قوانين الحركة الحيوية كان من الممكن أن تذكر من دون شواهدها الشعرية وقصصها التراثية وجذورها القديمة، وإنما حَرَصْنا مع ذلك على الشواهد والجذور لا لممارسة قضية "التأصيل" فقط، والتي تميّزت بها عملية إحياء فقه الدعوة، وإنما رعاية لأذواق الدعاة في الفكر أيضاً، فإنهم أصحاب أحاسيس أدبية، ونزعة تقليدية، وحنين إلى طرائق السلف في العيش والتعبير، ولهم ولع بتفضيل الحكمة القديمة على الطارفة، وللمكوث مع العادات والقيم المحافظة، ويستطيبون الأنماط البدوية الأعرابية، والتلذذ بذكر مناقب الأجواد، مع أن هؤلاء الدعاة هم أهل البراعة في التنمية الحضرية

والأداء المهني والإتقان العلمي، فقد أنتجت التربية الدعوية على مدى أكثر من ثلاثة أجيال حديثة نموذجا فريداً من المسلمين يجمع بين الأصالة والمعاصرة، وله إرهاف واسترسال عاطفي يوازي المعايير المنهجية وأرقام الإحصاء، فأردنا لأسلوب "حركة الحياة" أن يماشي ما عند الدعاة من هذه النزعات والأذواق، وأن يسترسل مع طرائقهم ولُغتهم، فكان هذا العَرض الارتجاعي الذي يأتي بالماضي ميزاناً لتقويم الحاضر وخُطة لاقتحام المستقبل.

● ويفيدك في تقويم حكايات هذا البحث أن توقن بميزاني: أن المعنى لا يلزمه أن يكون نادراً عزيزاً لأتي به، وإن كانت أكثر نقولي هي كذلك، وأنها ثمينة، ولكن يكفي في المعنى أن أجده مصاغاً بلفظ وتركيب نادر جميل فيه جِناس أو طِباق أو حروف متناسقة : لأستله وأثبته لك، فتكون القيمة كامنة في بلاغة الأداء وتجديده، فإذا أعملتَ القياس باستحضار هذا الجانب من الطرافة : فإنه يؤذن لك بمتعة تدغدغ قلبك المرّة بعد المرّة، وأنا أوصلك إلى أتم من ذلك من خلال بيت شِعر يكون شاهداً لمعنى مُرْسَل، أو اكتشاف أصالة ميزان له شاهد إيماني أو عربي أو شرقي وقد كنتَ تظنه من ابتكار كافر أو غربي .

● فالبحث كتلة دروس تجريبية وعلمية عصرية، إدارية وإبداعية وتخطيطية ونفسية، لكنها عُجنت بإشارات إيمانية وروح بدوية وأنماط شرقية، وأسمار عجائز، ومفاهيم سمّاك وبقّال وحدّاد، وخلجات صيّاد ومُقاتل، ومخادعات لص، وغنج أنثى.

● إن مدونة "استراتيجيات الحركة الحيوية" قد رصدت نفسها لجمع جمهرة فنون السيطرة على مسار الحياة، من أجل أن تُصبح في التقويم النقدي لها "قراءة دعوية" للفقه وتاريخ الإسلام وحاضر العالم الإسلامي ومواعظ المؤمنين، وهي "نَخْلٌ" لتجارب نبلاء المسلمين وحكمائهم وقادتهم على تعاقب الأجيال والقرون، وكانت ثمّ "ريادة " متقنة و"وكالة" أمينة عن مجموعة من الدعاة وشباب الصحوة، أوغلت في السياحة والاستقصاء واختيار الثمرات،

ورجعت لهم بخير يقين، وخلاصة وافية، وحصيلة واضحة، وأضافت جوانب الصواب إلى بعضها، وانعطفت أطرافها على مركزها، لوصف بؤرة الانطلاق، وتحديد معالم دستور التقدم الواعي لعصبة إصلاحية تريد أن تستدرك وتلغي الخطأ وتوقد من بعد ظُلمةٍ..... المنارَ.

□ الأسرار المخْلَفَة نفتحها البلاغة المفْلَقَة

□ وقد تعمدت أن أتبسط في بعض ما أعرض، واشرح، لأني أقدّر أن بعض الدعاة الذين يبرعون في علم الدين ويحيطون بفقه الإسلام: لا يملكون من الثقافة العامة ما يوازي إحاطتهم الإيمانية والشرعية، ولا من خبر التاريخ ما هو تكميلي لفهمهم، وأنا إنما وضعت نظرية "حركة الحياة" لدعاة الإسلام بالدرجة الأولى، ليخططوا أمورهم وفق مفادها، فكان لزاماً أن أراعي حالهم وحاجتهم، وأن أميل إلى تفصيل التعريف بالصور الجزئية الوصفية للحياة، أو لنبضاتها، أو لخواطر الجمهرة الكبيرة من الشعراء والفلاسفة والأبطال والحكام الذين كان لهم أثر في الكشف عن ذلك، أو في التحريك .

لكن يقولون : في فكرك غموض، وكأنه يتوارى خلف حجاب .

وما أنصفوا أنفسهم، وحرموها من فرصة إطلالة إيمانية على ساحة معرفية عريضة، حباني ربي بها، جل ثناؤه، وما كان مني اختباء، بل أنا الظاهر، وفكري مطبوع معلن سائر بحمد الله في الآفاق، ولكن الشبهة وردت من ثلاث ثغرات:

□ الأولى، أنني أوتيتُ أسلوباً يمزج فقه الشرع وسيرة السلف وحكمتهم بالتجريب الدعوي المعاصر، فمن كان نظرياً ودودة كتب ولم يمارس العمل الدعوي، من تنظيم وتربية ومنافسة سياسية، وتبَرّاً من ثقل المعاناة: غمض عليه مقصدنا، وعَسُر عليه الفهم، وفقه الدعوة أغلبه إسقاط القواعد والموازين على الواقع المتغير، فمن لم يتدرب على مثل ذلك من خلال يوميات الأداء وإرشاد الأساتذة القادة: صعب عليه استيعاب المغزى.

□ والثانية، أني التزم الموازنة بين صرامة النص، قرآناً أو حديثاً أو اجتهاداً توصل له السلف الأول، وبين مقتضيات المصلحة والضرورة وما يتطلبه الوضع المعاصر من مرونة، وذلك توازن تحكمه معادلات عديدة ذات أطراف شتى وأرقام وحقائق متعاكسة، وتتطلب القضية مهارة في الاشتقاق والقياس والركون إلى استحسان وسد ذريعة، وذلك كله وليد مران في البيئة الدعوية وتراكمات تأملية جزئية كثيرة تولدها التحديات المتعاقبة والمواقف الفاصلة، ولا تروى رواية ولا تقلّد تقليداً، بل يحوزها مَن في الميدان ويكون طرفاً، فإذا رأى غريبٌ موازناتي: أدهشته، وعما قريب يوشك المشارك أن يفقه.

□ الثالثة: أني أوتيت حروفاً من البلاغة، وجودة الإنشاء، ودقة اللفظ، وشيئاً من جناس، فيكون كلامي أرفع من مستوى المستعجل، والحل يكون في صعود القارئ لا في نزولي.

ومع ذلك فالغموض حقيقة، وكلام القراء صحيح، ولا ننكر صدق ملاحظتهم، وسبب ذلك أن فقه الدعوة وصفٌ حساس وتصوير جسّاس وتحليلٌ وفراس، وترجمة لما في قلوب الناس، والرقيب يعد الأنفاس، لذلك لا يكون في وسعنا غير أسلوب الإيماء والاختلاس، فنذكر من المعنى طرفاً ونحيله إلى ذكائه في فهم الباقي، ونخاطب البعيد ونريد القريب، ونورد من الكلمة حرفاً، وفي القاموس التجريبي تمام لفظها، وذلك هو الذي ختم على باطن المغزى بقفل وأعلن الظاهر، وهو الذي أغرى بالعدول عن معروف البيان إلى اللغة الخاصة، ومُكرهٌ أخوكَ لا بطل.

● وأنا أدرك أن هذه النظرية صعبة الفهم، ولا يروق أسلوبي في شرحها لمعظم الدعاة، ولكني أجزم بأن من الضرورة بمكان أن يستوعبها الدعاة، وقد وضَعتُ في حسابي أن الجمهرة الدعوية العظيمة إن لم تصبر على لأواء فهمها فإن الدعوة الإسلامية العالمية في أقطارها العديدة لو يتاح لها أن يدرك ألفٌ من دعاتها فقط صور الحياة الجزئية واجتماعها في صورة شاملة، وولادة النبضات

وانضمامها إلى بعضها لتكوين زحم تحريكي ينساب في سياقات وأنساق تتضح من خلال التأمل والدراسة والتجريب ومراقبة التاريخ: فإن ذلك يكفي، لأن هؤلاء سيعكسون فهمهم على مجمل الخطط والمواقف والفكر الدعوي، ويكون لهم أثر قيادي وإن لم يرشحوا لمنصب القيادة، وكأن وعاةً في حدود الثلاثين في كل قطر لو تناجوا بينهم وتحاوروا في تطبيق نظرية حركة الحياة وإنزالها على واقع بلدهم ورصدوا الصور والنبضات عملياً واكتشفوا نوع المعادلات التأثيرية في وجودها النسبي المتغير الخاص بمجتمعهم ومحيطهم: فإن سيطرة إيمانية على مجرى التبدلات ستكون ممكنة، ويتم اختصار جهدٍ، وتسارعَ خطوٍ، بلا لَهَث ولا ضياع، وذو الأمل يؤكد طموحه بعسى، ثم بدعاء .

● بل "ستيفن كوفي" مثلاً في كتابه العادة الثامنة وفي غيره لا يكتفي بالغموض، والكلام العائم، حتى يوسع هتلر شتماً، أنه توسّع في التنكيل باليهود، ويمدح أنور السادات ويجعله مثال القائد الناجح المستوعب لفن الزعامة، لأنه صالحَ إسرائيل، وفي ذلك ما يُنبيك عن سبب الدعاية الواسعة لكتبه، ثم يُقلد المدربون العرب الدعاية، وأنا آتيك بفن أسمى وكلام أدق وتأصيل عميق وارتباط بالإيمان، وقضايا الأمة، على سَنن الإخلاص والوفاء الواعي، فافهم القصة واتعظ.

□ وكان "موسى عجمي" قد سبقني إلى إصدار كتابه "حركة الحياة" مذ سنة ٢٠٠٣، مع أني ألقيت محاضراتي على تلامذتي قبل ذلك في الإمارات قبلها بعشر سنوات في ذات الموضوع، ولكنها عادتي أن "أعتق" أفكاري وأتيح لها مجال النمو، وأتيح لنفسي مجال التمحيص والإنضاج.

● ومع أن موسى عجمي يلتقي معي في كثير من الرؤى، وبيننا تقارب، إلا أنه مر على الموضوع بتعميم فضفاض، وأنا أوغلت في التخصيص والتفصيل والاستشهاد بشواهد كثيرة للمعنى الواحد، حتى كأن كتابه مجرد مقدمة لكتابي.

ثم هو فلسفي النزعة، حتى تورط في غموض، وأنا منفتح على كل العلوم، وظاهري، وشغوف بوضوح اللغة، فحصل عندي عرض منبسط واسع.

وكتابه تأملي محض، إذ أرهقني منهجية استقرائية ووصفية وتحليلية ذهبتُ بها بعيدا.

وفي كلامه أحياناً مقاربة لمعنى وحدة الوجود من دون تصريح وبأقل من التلميح، فكان يدنو، فيحذر، فيبتعد، بينما عقيدتي سنية محضة وسلفية يَقظة.

● ومع ذلك فأنا وإياه جيران، حتى ظننته أول مرة أنه من تلامذتي الذين سمعوا مني واقتبسوا، فهو يرى كتيبه في حركة الحياة خلاصة تجربته، وعصارة فكره، وصفوة كيانه، كما صرح في الإهداء أول صفحة، وكذلك أرى كلامي، وكذلك يتوصل إلى الفن والجمال كمحركات حيوية، وكذلك أنا، وكأننا كنا نتحاور.

□ وحين توغلت في تدوين "حركة الحياة" وتوضحت لي أبعادها ومعادلاتها، وأثناء استزادتي ومحاولتي الإتقان : وجدت أفكاراً مقاربة عصفت بذهن البعض، وكانت لهم تجارب، إلا أنها ناقصة، وإنما استعير منها جانبها الذي يشهد لي ويصحح مذهبي فيها .

● وأوضح ذلك : عمل الشاعرة الأميركية ماريان مور (١٨٨٧-١٩٧٢) التي (استلهمت في قصائدها: الأخبار السياسية، والوقائع الرياضية، والإعلانات التجارية، والحكايات الموضوعة على ألسنة الحيوان، مُقَطِّرةً منها نظرات أخلاقية وفلسفية ثاقبة)[٩].

● ومسلكها صحيح، يعرف صحته المثقف الذي اطلع على أسرار الصنعة الفكرية الأدبية، ذلك أن الإعلان التجاري تقف وراءه براعة أتقنت علم النفس واكتشفت كيفية التأثير على المستهلك، مع بلاغة وجناس في صياغة العبارات توازي نمط الشعر، وكذلك الوقائع الرياضية، تحريرها يحتاج بثّ شحنات حماسية عاطفية، ودِقة في التصوير، وكل ذاك وهذا هو ملحظ في تحريك النفس ويبنى أطرافا من معادلات التحريك، فإذا تنوعت طرائق وفنون صاحب الإعلان والوصف الرياضي : حصل إغناء وتعداد للمعادلات، فإذا اقترنت بمعادلات مثيلة تكشف عنها الأخبار السياسية : صار توسعٌ يقارب أن يمنح الذكي

المتفلسف شيئا ما يجعله محور نظرةٍ فلسفية، وذلك هو الذي انبغى للشاعرة "مور"، فلما نقلني التوسع في استقراء مكامن الأدب والعلوم والتاريخ إلى قرب قريب من صورة حيوية أشمل : توضحت لي قوانين "حركة الحياة".

□ ولربما يزهد مستعجل بما ننقله من تعريفات بعض العلوم والفلسفات والتربيات والقضايا العسكرية أو الإدارية إذا ما اعتمدنا فيها على مثل موسوعة المورد، ظناً أن الاختصار مخل، واخذ الرأي عن غير المختص خطأ، ولكني رأيت اعتماد تلك التعريفات، بسبب الثقافة العميقة التي عُرف بها محرر الموسوعة الأستاذ منير البعلبكي، وإطلالته عبر أعمال الترجمة التي أجادها على الأدب العالمي والتاريخ والعلوم، فهو في مستوى جيد من التمكن، ولذلك صارت له براعة في أن يستوعب أي موضوع ثم يلخصه في صفحة واحدة أو جمل قليلة، على طريقة السرد الموجز "الجامع المانع"، وبذلك يختصر لنا طريق التعرف على كثير من جوانب الثقافة بعمله هذا.

● وهذا هو سر كثافة رجوعي إلى الموسوعات الأخرى واعتمادي عليها واكتفائي بموجز تقاريرها وتعريفاتها للأمور، فإنها مثل "المورد"، والذين حرروها مثل البعلبكي : أناس أهل ثقافةٍ واسعة وبيانٍ ومُكنةٍ تعبيرية وإيجازية وبراعة تلخيصية وخبرة في العرض الجامع المانع، ولذلك هم أولى من نعتمده لهذه المهمة، وكم من مدرس فلسفة هو أفصح وأبين من الفلاسفة وأقدر منهم على شرح مرادهم، وذلك هو الذي دفعني لاعتماد "الموسوعة الفلسفية" بخاصة، فإن فيها خلاصة الفلسفة.

□ عواصف الحركة الحيوية تُلقّن الناسَ الحُريّة

□ ولأن معنى الحرية نبيل: حَصَل ربطُ بين المُكنة اللغوية والحرية، وحَرَصَ الشعراء بخاصة على توظيف الثروة اللغوية لبيان خلجات أنفس

الأحرار، وتصوير كل مأساة تكون فيها حقوق الإنسان مسلوبة، وشرح درب الموت النبيل، وتأسس "أدب الحرية".

● وحين تصطف الكلمات وأبيات هذا الأدب السامي : تتعدى أن تكون متعلقةً بمناسبةٍ فائتٍ دَعَتِ الأديب أن يبدعها، وإنما يصبح هذا الأدب صالحاً لوصف عموم المواقف المثيلة ولو بعد أكثر من ألف سنة، ومن ذلك ما قاله أبو كبير الهُذَلي في القديم (يصف قوماً ضُرِبوا، فسقطوا على أيديهم وأرجلهم) :

مُتكَوِّرين على المعاري، بينهم ضرب كتعطاط المزادِ الأنجل

(ومتكورين: أي بعضهم على بعض).

والمعاري (رؤوس العظام، حيثُ يُعرَى اللحمُ عن العظم)[١٠].

والتعطاط : الانشقاق .

فهم مثل جلد قربة واسعة طُعن عدة طعنات فتشقق.

وهذه المعاينة لمنظر الألم هي التي تبعث في نفس الرائي طلب الحرية.

وصور التعذيب الأمريكي في سجن أبو غريب مثال لهذا التكور، وأن أجسادهم يكون بعضها فوق بعض.

فبيت الشعر هذا مصوغ في لغة غريبة، لكن الأيام والأمثلة المرئية جعلته مشروحاً مفهوماً لكل أحد، وصار كأنه "بيان سياسي" تنطلق منه نفضات التحرر.

والمسلم يريد الكلمة السواء، وذلك هو الأصل : "تعالوا إلى كلمةٍ سواء بيننا وبينكم" آل عمران

● لكن له قانون استثنائي عندما تكون الضُهْدَة: أن يقول للظالمين، من كافر وفاسق، ومستعمر ومتسلط:

فإن تعافوا العدل والإيمانا فإن في أيماننا نيرانا

ورجال الدعوة، والشعوب المهضومة الحق، وضحايا العولمة وتفوق السلاح الأمريكي: يسرهم أن يُذعن ظالم لمنطق الإيمان وتساوي الإنسان، فإن تمادى: فإن يد المسلم اليمنى تُرسل نارا، وله مع كل حُرٍ حِلفٌ وتناصُر ولقاء.

ولكن تجربة الحياة تفيد بأن الظلم من شيم النفوس، وأنه يتكرر في البلدان والأجيال، والمتعظ التائب قليل، ولذلك كانت "التربية على معاني الحرية" مَعْلماً من معالم منهجية التربية الدعوية، جيلاً بعد جيل، والعناية بما يلزمها من أخلاق الإباء والعزة والاستعلاء.

● ومنذ أيام الجاهلية : كان هناك شاعر من مُعَلِمي الحرية اسمه "امرؤ القيس ابن عابس" ترك لنا قطعة شعرية من "أدب الحرية العربي" هي "وثيقة في فقه الاستعلاء" يوم تروج الاستكانة، فهو يروي لزوجه "تَمْلِك" المعنى الكبير الذي يكمن في مشاركتها إذا أَنِفَتْ مثله، فيرسم بروايته منظراً جزئياً عزيزاً من مناظر الحياة ويقول فيه:

أيا "تملكُ" يا "تَمْلي" ذريني، وذري عَذلي
فثوباي جَديدانِ وأُرخي شَرَكَ النعلِ
ومني نظرةٌ خلفي ومني نظرةٌ قبلي
وقد أختلسُ الضربةَ لا يَدْمى لها نصلي
فإمّا مِتُّ يا "تَمْلي" فموتي حُرّةً مثلي

وهي أبيات أوردها ابن منظور في لسان العرب عن السيرافي في تاريخ النحويين.

● وهي قطعة نادرة من أدب "الحرية".

فهو يُعَلّمها أن لا تعاتبه، بل أن تنطلق مثله نحو ميتة كريمة.

فثوباه جديدان، وتلك كناية عن نظافة سيرته وطُهره ونقاء أمره .

وله نظرتان : قَبْلية وبَعدية، وتلك إشارة إلى وعي يملكه وبصر سياسي.

ويرخي شِراك نعله : وهي إشارة إلى مشية خططية منهجية معتدلة ليس فيها افتعال وتهور.

ويسدد ضربته بفن، بحيث يقتل، ويسحب نصله قبل أن يَعْلَق به دمٌ متفجّر .

فهو المتقن لفن "تحريك الحياة" فلماذا الوَجَل؟ فإن كان مَوْت: فعلى صاحبته إكمال شوط الحرية...!

وعنه، تلقفها الحُر الجزائري المعاصر محمد برّاح فقال:

غداً سيقرأ هذا الجيل أحرفنا
نوراً ونارا، وأنغاماً وألحانا [١٢]

فنحن في جهاد، ولكن مع الجهاد مشروع إسلامي شامل وضّاء، وفكر أصيل، وجهاد العراق من تاريخ الجزائر يستمد، ومن تاريخ كل بلد فاهت أسلحته بلحن "الله أكبر".

❑ صَنعةُ الرصد بعينٍ بَدَوِيّة وعقلٍ مؤمن

□□ أما بعد:

فإني سأنحدر معك في تيار حركة الحياة على مثل هذه المراكب المعنوية، وأدع إحياء فقه الدعوة يروي لك مزيد نصوص ما كنت تظن أنها أصل السياسات المعاصرة.

وسأبقى أنوع لك هذا النمط، لتكون مجموعة هذه الرسائل موسوعة شاملة ومدونة مستقصية لضروب الفوائد.

● إن "استراتيجيات الحركة الحيوية" هي "كُتلة" من الحقائق الإيمانية، والدراسات النفسية، والإشارات الفلسفية، والمعايير العلمية، واللمعات العقلية المنطقية، تعتمد التوصيف، ثم التحليل والتأمل، ولكن هذه الكتلة تستبطن بطائن عديدة يقوم كل منها مقام كتاب تخصصي.

فمن ذلك: فقه التاريخ، ورواية مغزى التحولات الحاسمة، وأدوار القيادات، ومواقف الأحرار.

ومن ذلك: خبر الإبداع، بما نروي من مشاهد إسلامية في طرائق الإبداع، والتفاتات عربية نحو زاوية من زوايا تفسير الإبداع، أو بما نسرد من نبأ إبداع ارتكبه مؤمن، وبذلك نخرج من استئسار البحوث الإبداعية التي روجتها معاهد التدريب وتقليدها لأساليب المدربين الغربيين وشواهدهم الغريبة على بيئتنا وأعرافنا، فما هو هاهنا اجتهاد وخروج من سجن المتابعة.

ثم في السياق تداول نقد أدبي، وشعري بخاصة، بما كان من تكرار الدخول إلى قلوب الشعراء، واستنطاق مبهمات تمتموا بها، أو تفسير إيماءات شغفوا بها، وفي السرد ميزة وصفية تصويرية واضحة تجمع بين الجزئيات لتكوين المنظر العام للحياة.

ثم في البيان الفني الجمالي مكمن آخر لفوائد يحتاجها المسلم العصري الحضاري الأفق.

وخلال كل ذلك: تركت التقليد لغيري، وأتيتك بالطريف، والرأي الاجتهادي الحُرّ الجديد الأصيل.

فهي صنعةٌ حُرّةٌ أهديها لك في متنٍ بكرٍ ساذجٍ نقيٍ نظيفِ الأردان طاهرِ الذيل يَدرجُ على سَنَن البداوة العربية الأولى، لم تشبها أخلاطٌ، أو تُزاحِمْها أساليب ناقلٍ قفازٍ يزعم مُكنة التدريب التطويري، بل قام أمرُنا على أن نُسَلِّمَكَ لمِنْعَة الأصالة وعُودَ القَبَس، ثم أنت الذي تملأ الميادين أنوارا.

وأحمد الله أني نجحت في "إحياء فقه الدعوة" وأرجعت حركات الدعاة الى أصولها وجذورها، وأنا اليوم أول من ينجح في وضع تفسير إسلامي وفطري عربيّ الصناعة لقوانين "حركة الحياة" ومزج فنّ "الإبداع" بمحضنا الإيماني الخالص الملتقط من تُراثنا، لا المستورد المقلّد، وتلك قيمة هذا البحث.

وهذه التخريجات المتنوعة للحركات وأصولها وجذورها النفسية والعلمية ورصد ظواهرها: كلها تصلح أن تكون مجموعة أمثلة تدريبية لرائدي "الإبداع" الذين يرومونه ويحاولون إتقانه، فان كل فكرة تفصيلية تأتي في سياق السرد والوصف وبيان طبيعة إحدى الحركات أو جذورها تعتبر قضية قابلة للتأمل

واستنباط المعاني منها، ولذلك يتلقفها الذكي ويصطادها ويحولها إلى فكرة إبداعية، لتتطور إلى شأن إبداعي، ومن ثمّ فهو متن تدريبي من الطراز الجيد فيما نظن، يصلح كمنهج في جميع مراكز التدريب والتطوير.

بل أرى الأمر أبعد: فان المنهجية المعتدلة التي استقصيتها واعتمدتها جعلت مبحث "حركة الحياة" يصلح أن يكون مقرّراً جامعياً في تدريس الفلسفة الإسلامية المعاصرة، ثم كمصدر أساس لبيان أوصاف الفكر الإسلامي وتطوره.

□ أنت مأمورٌ بحفر ضخم... فالنمس الإنجاز

□ ثم أما بعد: فاعلم أنك ابن آدم، وقد ورّطك جدك ودقّ على صدره، وتعهّد أن يقبل مسؤولية إحداث حركات إيمانية وشرعية، ولئن كنتَ غائباً تلك الساعة: فإن الله قد استوفى تذكيرك فقال: "إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبينَ أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً"الأحزاب/ ٧٢.

وذهب جمهور الفقهاء إلى أن (الشرع كله أمانة) فيما ذكر ابن عطية.

وذلك مؤكد بالضوابط الكلية للشرع، ومنها الوفاء بالعقود والعهود، لقوله تعالى: "وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسؤولاً"الإسراء/ ٣٤ (وذلك لفظ عام لكل عهد وعقد بين الإنسان وبين ربه، أو بينه وبين المخلوقين في طاعة. وقوله: "إن العهد كان مسؤولاً" أي مطلوباً ممن عُهد إليه أو عوهد، وهل وفّى به أم لا؟).

وكذلك آية: "يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود"المائدة/ ١.

وإنما الذي قذف في قلب آدم الشجاعة على حمل الأمانة: أنه وجد نفسه صاحب عقل، به يستطيع بعث الحركات الحيوية والسيطرة عليها.

قال تعالى: "ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البرّ والبحر ورزقناهم من الطيبات، وفضّلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً"الإسراء/ ٧٠.

قال ابن عطية: (وإنما التكريم والتفضيل بالعقل الذي به يملك الحيوان كله، وبه يعرف الله تعالى، ويفهم كلامه ويوصل إلى نعيمه.).

فكونه يملك الحيوان كله: حقيقة حيوية ضخمة تنشأ عنها حركات كثيرة.

وكونه يعرف الله والدين: حقيقة حيوية أخرى عظيمة توجّه الحركات كلها في سياق العبودية، فيضادد سياق الجاهلية، فتزدحم الحركات، ليكون القَدَر هو الفاصل.

فكن التقي، وعلى التوحيد المحض بلا بدعة، ليسوق الله نحوك أقدار الخير.

قال تعالى: "وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى"طه/ ٨٢.

قال ابن عطية: (الذي يقوى في معنى "ثم اهتدى" أن يكون: ثم حفظ معتقداته من أن يخالف الحق في شيء من الأشياء، فإن الاهتداء - على هذا الوجه- غير الإيمان وغير العمل، ورُبَّ مؤمن عمل صالحاً قد أوبقه عدم الاهتداء، كالقَدَرية، والمرجئة، وسائر أهل البِدَع والخوارج. فمعنى "اهتدى": ثم مشى في عقائد الشرع على طريق قويم.).

ثم قال: (وفي حفظ المعتقدات ينحصر عُظم أمر الشرع)[١٣]. ☼

---

(١) موسوعة المورد، بتحرير منير البعلبكي ٨/ ١٠٤

(٢) العِقد الفريد ٦/ ٢٦٦٨

(٣) حركة الحياة / ٤٢/ ٤٣

(٤)(٥) لسان العرب ٣/ ٦٣٧/ ٨٥٠ من الطبعة التي رتبها جورج خياط، وجميع ما سيكون اقتباسه في هذه الرسائل من لسان العرب. فإنما هو من هذه الطبعة.

(٦) تضمين لرجز في لسان العرب ١/ ١١٩٢

(٧) موسوعة المورد ٧/ ١٣٣

(٨) جريدة أخبار الأدب المصرية عدد ١٩/ ٣/ ٢٠٠٦

(٩) موسوعة المورد ٧/ ٦٣

(١٠) لسان العرب ٢/ ٧٦٠

(١١) لسان العرب ٢/ ٧٥٤

(١٢) ديوان نسائم الفجر الصادق / ٦٨

(١٣) تفسير ابن عطية ١٢/ ١٢٦ ، ٩/ ٨٠/ ١٤٥ ، ١٠/ ٦٩ على التوالي.